الباب الثانى

المجتمع العربى
والإسلاميون والديمقراطية

الفصل الأول: آفاق بناء مجتمع عربى إسلامى مقاوم.

الفصل الثانى: الديمقراطية والإسلام يجتمعان.

الفصل الثالث: الإسلاميون والديمقراطية

الفصل الأول

آفاق بناء مجتمع عربي إسلامي مقاوم(*)

«لا تستسلم أبدًا. إن الدين في صفك، يضع السلاح في يدك، ويضع الأمل في قلبك، ويضع الإصرار في إرادتك، ويكلفك أن تستميت دون حقك».
الشيخ محمد الغزالي

المقاومة هي الوقوف في وجه الاعتداء، سواء كان مصدره قوى أجنبية غازية أو قوى داخلية مستبدة[1]، ويقصد بها كل أشكال العدوان، مادية كانت أو معنوية. والمقاومة بوصفها فعلًا إنسانيًا في مواجهة العدوان لا يمكن تصورها إلا في مجتمع تشكل المقاومة جزءًا من ثقافته. وبناء مجتمع مقاوم ضرورة لأمة تتعرض منذ مراحل متوالية تعددت فيها أشكال العدوان لتتجاوز جبهات القتال إلى أعماق المجتمع، فأصبحنا نتداول: التبشير (بمعانيه المتعددة) والغزو، بشقيه الثقافي والعسكري، والاستشراق،... وغيرها من المفردات التي صارت جزءًا من قاموس التوصيف والتحليل العربي على المستويات: السياسية والثقافية والاجتماعية على السواء. وهو ما يعبر عن أشكال مختلفة من مساعي الاختراق والاجتياح وصولًا إلى الاجتثاث.

وفي سبيل تحقيق هذا المخطط يسعى المعتدون إلى استنبات التبعية في أرضنا لتسقط حواجز الممانعة. وبرغم أن البعض يربط بين المقاومة كمفهوم اجتماعي وبين توقف صوت المدافع على جبهات القتال، فإن الحاجة إلى مجتمع مقاوم ضرورة،

(*) ورقة قدمت في ندوة «المقاومة والمجتمع المقاوم» . . . قراءة في سيرة الإمام «الصدر» في بيروت ٢٣ - ٢٥ /١١/ ٢٠٠٠م.

(١) النموذج الانتفاضي: السمات والآفاق - تقديم: د. محجوب عمر، تأليف عبدالمجيد إبراهيم - دار البيادر - مصر - ط ١ - ١٩٩٠ - ص ٤٤.

حتى في حالة استمرار الصراع المسلح، فهذا المجتمع المقاوم مصنع المقاتلين، رجالًا ونساءً، ومصدر القيم، التي هي شرط موضوعي لتحول المقاومة إلى موقف نفسي راسخ ثم عمل مستمر متواصل، لا أن تكون مجرد رد فعل وقتي.

❑ رصد الواقع

ولكي يمكننا تحديد ملامح بناء المجتمع المقاوم يجب علينا أولًا رصد الواقع الذي تعيش فيه الأمة الآن حتى نعرف موضع أقدامنا ونقاط القوة للبناء عليها ونقاط الضعف لمواجهتها.

❑ نقاط الضعف

من أهم نقاط الضعف التي أصابت الأمة:

١- تفكك الأمة وبزوغ النزاعات الثنائية بين الدول بعضها وبعض (النزاع الإيراني - العراقي، النزاع العراقي - الكويتي السعودي، الخلاف السوري - العراقي، الخلاف الجزائري - المغربي... إلخ)، والخلافات الطائفية والمذهبية والسياسية، وهو ما أضعف قوى الأمة وأنهكها وأعطى الفرصة لأعدائها لتوظيف هذا الخلاف واستثماره.

٢- تراجعت المنظومة القيمية الإسلامية في المجتمع نتيجة ضغط المشروع الغربي الأمريكي الاستهلاكي في القيم والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والأنماط الاستهلاكية، ونتيجة الصدام بين الحركات الإسلامية، وأنظمة الحكم العربية، وهو ما أضعف هذه الحركات وعرضها للملاحقات الأمنية وتسبب في تراجع دورها في كثير من الأماكن في تغذية ظاهرة التدين وانتشار منظومة القيم الإسلامية،وهذا التراجع ملحوظ في الإعلام والفن والزي والثقافة والنمط الاستهلاكي والعلاقات الاجتماعية وتأثر الترابط الأسري وغيرها من الظواهر.

٣- ازدياد الفجوة التقنية (التكنولوچية) بين العالم العربي و الإسلامي من ناحية والعالم الغربي، الأمر الذي جعل ترتيب الأمة العربية والإسلامية يأتي في

موقع متأخر في عالم الصناعة والتقنيات الحديثة بأنواعها كافة، وهو ما أثر بدوره في الوضع الاقتصادي لهذه البلدان وفي النمو والتقدم والرفاهية لمواطنيها، مما يصب بشكل كبير في إضعاف الأمة وجعلها أقل تأثيرا في العالم وفي الوضع العالمي والعلاقات الدولية.

٤- من جماع ما تقدم أصبح ميزان القوة في كل النواحي مختلًّا بين الأمة العربية والإسلامية وأعدائها وبخاصة في مجال القوى العسكرية أو التسليح وخصوصا أمام المشروع الصهيوني في الأراضي المحتلة فهو يتمتع بدعم واضح من الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم أوروبا الغربية ليظل المشروع الغربي مهيمنًا ومسيطرًا على بلادنا، والمشروع الصهيوني هو رأس الحربة للمشروع الغربي الاستعماري الحديث.

❑ نقاط القوة

وكما أن هناك نقاط ضعف لهذه الأمة، فهناك أيضًا نقاط قوة من أهمها:

١- إن وجدان هذه الأمة يختزن قيم التدين والإيمان بالله، والقيم الإسلامية تملأ هذا الوجدان وهو رصيد يجب استنفاره في الشعوب واستثماره ليتحول إلى وقود للتغير والمقاومة والبناء.

٢- أيضًا من هذه النقاط المهمة ظاهرة الصحوة الإسلامية المنتشرة في أماكن كثيرة في العالم العربي والإسلامي، والتي أحيت مظاهر التدين خاصة في أوساط الشباب منذ السبعينيات حتى الآن، وجعلت مظاهر التدين وسلوكياته تنمو، وعبأت الجماهير لصالح الإسلام بوصفه مشروعا حضاريًّا يجب أن يقود الأمة، بل وغذت قوى الاستضعاف في مواجهة قوى الاستكبار والطغيان، وأنتجت كل الحركات المجاهدة والمقاومة (سواء في لبنان - فلسطين - أفغانستان - البوسنة - الشيشان وغيرها) وإن كانت هذه الصحوة شابتها بعض الشوائب التي تحتاج إلى ترشيد وتوجيه وبخاصة في توجيه قوتها لأعداء الأمة المحتلين لأراضيها وليس لأبنائها.

٣- حالة المقاومة السياسية والثقافية والفكرية المنتشرة في العالم العربي سواء لمشروع التطبيع للكيان الصهيوني أو للمشروع الغربي الاستعماري الأمريكي الداعم للكيان الصهيوني، وانتشرت في النخب السياسية والفكرية والثقافية والفنية والإعلامية.

٤- رد الفعل الغاضب من الجماهير العربية والإسلامية والنخب كذلك على انتهاك المقدسات الإسلامية، وهي غضبة تكررت كلما تعرض الحرم القدسي الشريف لانتهاك الصهاينة. حدث ذلك عند حريق المسجد الأقصى، وعند العدوان على الحرم الإبراهيمي، وعند تدنيس المجرم شارون الحرم القدسي الشريف الذي فجر انتفاضة الأقصى الأخيرة.

❑ المجتمع المقاوم

هو مجتمع يستحضر أفراده درجة عالية من الإحساس بالاستهداف، ويسعى لمواجهة الاستهداف من خلال مستويات عدة:

أولها: حماية قيم المجتمع بسياج يمنع «الآخر» من تدجينها أو إفراغها من محتوياتها، وبخاصة في ظل تعاظم قدرة أجهزة الإعلام على التأثير في الناس وتغيير ميولهم (وأحيانًا اقتناعاتهم)، وهو تأثير يستمد خطورته في المقام الأول من طابع «التلقين» الذي تتسم به علاقة الإنسان بهذه الأجهزة، وغياب المصادر الأخرى التي يمكن أن تحدث نوعًا من التوازن في رؤية الإنسان. وإذا كانت أجهزة الإعلام هي أكثر خطرًا فهي في النهاية جزء من منظومة أشمل تعمل متساندة لإعادة صياغة الإنسان.

ثانيها: تفعيل ثقة الإنسان باللَّه تعالى كطرف أساسي في معادلة الصراع، فكل من يتعدى عليه يصدر في رد فعله عن تقديره لموازين القوى الواقعية، وهذا التقدير الواقعي يمكن أن يجعل الاستسلام أقرب الخيارات إلى نفسه، حيث يلجأ إليه ليحمي وجوده البيولوچي مسقطًا من الحساب اعتبارات أخرى قيمية هي جزء من تصور للكون تشمل الحياة جزءًا منه. وقد يمني نفسه حينئذ بأنها: «خطوة للخلف من أجل عشرة للأمام». أما المقاوم فإنه يأبى إلا أن يقول كما قال المصطفى ﷺ وهو يواجه

قريشًا، دون قوة أو ركن يستند إليه، بعد تأييد اللّه تعالى إذ قال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[1]، وهي بشارة لم يكن ليركن إليها إلا مؤمنٌ بأنها متحققة حتمًا، وهو بمقياس موازين القوى المادية الطرف الأضعف لولا ثقته باللّه تعالى.

ثالثها: الانطلاق من قيمة الثقة باللّه سبحانه وتعالى إلى الفعل المقاوم، ولكل معركة سلاحها الملائم تفرضها عوامل متعددة مركبة، كحجم العدو، ونقاط ضعفه، وطبيعة ميدان النزال، والأسلحة المتاحة، وغير ذلك من العوامل. والفعل المقاوم قادر على تحقيق التوازن النفسي للإنسان المقاوم ليواجه من يتعدى عليه بقلب راسخ وقدم ثابتة.

❑ عربي إسلامي

هاتان الكلمتان لا تنفصل إحداهما عن الأخرى، بينهما من الوشائج والصلات ما جعلهما أقرب إلى المترادفتين اللتين يمكن الاستغناء بإحداهما عن الأخرى. فالإسلام، كما قال الإمام الشهيد حسن البنا: «عروبة بعد العروبة» ولا عروبة إلا بالإسلام منظومة قيمية وتراثًا ثقافيًا لكل عربي، مسلمًا كان أو مسيحيًا. وخصوصية العروبة والإسلام تجعل المجتمع المقاوم الذي نستشرف آفاق بنائه مجتمع الشهادة، فالمسلم لا يعرف في جهاده إلا النصر أو الشهادة، أما الفرار من الزحف فهو كبيرة من أكبر الكبائر؛ فهو لا يغادر ميدان القتال إلا: ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[2]. قد جاء الإسلام دعوة لكل مظلوم ليقاوم ما وسعه الجهد، وهو ما عبر عنه الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه اللّه ـ بعبارة بليغة إذ يقول: إن رؤساء الأديان المبعوثين من لدن الله، كانوا ينشدون المساواة الحقة بين البشر، فإذا لم يستطيعوا أن يهبطوا بمنازل السادة، فلن يعجزوا عن الارتفاع بمستوى العبيد: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]

---

(١) سورة القمر آية ٤٥.

(٢) سورة الأنفال ـ آية ١٦.

(٣) سورة القصص ـ آية ٥،٦.

وليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به من ضيم فهذه جريمة، بل يقول الإسلام للرجل المغصوب منه ماله أو المنكوب في عرضه: «من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد». و«لا تستسلم أبدًا، إن الدين في صفك، يضع السلاح في يدك، ويضع الأمل في قلبك، ويضع الإصرار في إرادتك، ويكلفك أن تستميت دون حقك»[1]. وبناء مجتمع مقاوم يحتاج إلى شروط موضوعية في مقدمتها «عقيدة مقاومة». وليس من المبالغة وصف الإسلام بأنه شعلة مقاومة للظلم بأنواعه كافة. وهو يؤسس، بمفاهيمه العقائدية، وشرائعه، وسيرة نبيه صلى الله عليه وسلم، حالة من الممانعة النفسية التي تجعل احتمال الخضوع للظلم، أو فتح الأبواب لخيل الأعداء، أو أفكارهم ضربًا من المروق من الدين. والتاريخ في هذا السياق حافز، فكل مسلم يقرأ تاريخه مستشعرًا أنه ند للآخر يصبح مؤهلًا للإقدام على فعل المقاومة، بثبات المؤمن، وثقة القادر - بإذن الله - على تحقيق النصر أو الاستشهاد دونه.

❑ المقاومة اكتشاف للكون

حاولت الحضارة الغربية في مراحل صعودها الذي بدأ منذ حوالي خمسة قرون، حاولت الحضارة الغربية تصنيف البشر إلى نوعين: سوبرمان كل الحقوق هو إنسان نيتشه، وآخر «دون الإنسان» مستباح عليه أن يتكيف ويذعن. وبين ثنائية السوبرمان والكائن المتكيف المحروم من إنسانيته، ضاعت فكرة العدالة التي هي نقطة ارتكاز في رؤية الإسلام للعلاقة بين البشر - كل البشر - فالمسلم مأمور بأن يعدل حتى مع الأعداء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

---

(١) من مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» للشيخ محمد الغزالي - نقلًا عن: مقدمات الغزالي أو مفاتيح الدعوة - فكرة وإعداد د. طه إبراهيم شعبان - دار الأنصار - مصر - د. ت. ص٥٧ - ٨..

(٢) سورة المائدة - آية ٨.

وفعل المقاومة يقدم للإنسان صورة مختلفة له وللكون، فكل مفردة حول الإنسان، مهما كانت بساطتها تتحول إلى سلاح فعال، إذا وقف الإنسان على أرضية المقاومة وانحاز إليها. وقد ضربت الانتفاضة الفلسطينية المجيدة أروع الأمثلة في ذلك. فمثلاً كان الأطفال الفلسطينيون يكتشفون للمرة الأولى أن ثمرة البطيخ بألوانها الأخضر والأحمر والأسود، هي ألوان العلم الفلسطيني، وأن التلويح بجزء من ثمرة البطيخ يساوي في أثره النفسي على العدو التلويح بالعلم الفلسطيني فاستخدموها لإعلان رفضهم الاحتلال، والحجر الصغير الذي يألف كل منا رؤيته كثيرًا في مدننا وقرانا، تحول إلى قذيفة قادرة على تبديد أمن الجندي المدجج بالتقنية من قدميه إلى رأسه. وكذلك الأمر بالنسبة لمفردات كثيرة شهدتها تجارب كثيرة سابقة في تاريخ الشعوب. وعلى هذا النهج يمكن أن تتغير صورة العالم الذي يبدو ساكنًا محايدًا، فيتحول إلى ترسانة أسلحة تؤثر فعليًا في موازين القوى وهي أسلحة ليس بإمكان عدو أن يصادرها أو يلغي أثرها مهما بلغت قوته، والمقاومة على هذا النحو تعيد بناء الجسور بين الإنسان وبيئته التي يسعى المعتدي لاقتلاعه منها وتغريبه عنها.

❑ ثقافة المقاومة

الثقافة نتاج مركب من المفاهيم والميول وأنماط السلوك، وثقافة كل مجتمع ينبغي أن تتضمن ما يساعد على المقاومة في آن واحد، حيث يتطلب كل موقف استجابة معينة. غير أن حالة الاستهداف التي تواجهها الأمة منذ قرون مضت، وهي الحالة التي ازدادت حدة خلال العقود الخمسة الماضية فرضت الاهتمام بمفهوم ثقافة المقاومة، وإزاء التهديد تختلف ردود الأفعال من أمة لأخرى كما تختلف في تاريخ الأمة الواحدة من مرحلة لأخرى. لكن ما أهم ملامح ثقافة المقاومة؟

«أهم ملامح ثقافة المقاومة الحفاظ على الثوابت (الفكرية ـ والوطنية على السواء)، فهذه الثوابت تعبير عن اقتناعات ينبغي أن تظل ثابتة في حالتي النصر والهزيمة. فقبول الهزيمة أخطر كثيرًا من التعرض لمحنتها، وليس ثمة سبيل لجمع أمة على ثوابت، أية ثوابت، إلا باستحضار أكبر قدر من الروح الجماعية، فشيوع الروح

الفردية في المجتمعات بما تعنيه من نزوع استهلاكي وأنانية تقضي على إحساس الإنسان بوجود مشتركات تنبغي التضحية من أجلها.

وحتى تتجذر ثقافة المقاومة، وتنجح في إزاحة ثقافة الاستسلام، ينبغي أن تتسم بقدر كبير من الواقعية، «فكل واقع مهما بلغت سطوته فهو يحمل في داخله عوامل تغييره، والمؤمن القوي ذو البصيرة النافذة هو الذي يستطيع أن يدرك هذه العوامل وكيفية استغلالها، بالطريقة التي تجعل منها منطلقًا للتغيير إلى واقع آخر، يرتبط بالمثل الإيمانية المنشودة. واستيعاب إمكانية التغيير يحتاج وعيًا قويًّا يستطيع به صاحبه التفرقة بين عوامل التغير وبين أماني السراب والأوهام»[1]، وهذا الوعي لا تصنعه إلا ثقافة المقاومة. وفعل المقاومة يفجر طاقات في الفرد والمجتمع فتعبر عن نفسها أدبًا وفنًّا وفكرًا مغايرًا، وهذا الإبداع المغاير يساعد على إعادة صياغة الإنسان، وصورة المجتمع المقاوم. ولا يفوتنا في هذا السياق أن ننوه بأمرين:

أولهما: أن الرسول ﷺ في جهاده كان يولي عناية شديدة للحالة المعنوية للصحابة رضوان اللّه عليهم وهم من هم: ثباتًا وإيمانًا وفضلًا، كما كان يحرص على تشجيع الشعراء، وبخاصة حسان بن ثابت على رمي الأعداء بشعره كما يرميهم المحاربون بنبالهم، وفي إشارة واضحة إلى أهمية الثقافة المجاهدة كجزء من فعل الجهاد.

ثانيهما: إن درس الصراع العربي الصهيوني يعلمنا أن سبيل الاستسلام لا تمهده جماهير الأمة فهم دائمًا يأملون في نصر الله، وبرغم أن هذه الجماهير كانت دائمًا تحمل العبء الأكبر في كل جولة من جولات الصراع، فإن تمهيد الاستسلام تكفل به مثقفون دعوا إلى الواقعية والتكيف، وغيرها من مفردات ثقافة الاستسلام بحيث أصبح الهدف غامضًا وأصبح بالإمكان المساومة على الثوابت. ولذا فإن ثقافة المقاومة ـ بمعناها الواسع ـ ضرورة لنشأة المجتمع المقاوم، وكلما كانت هذه الثقافة ذات

---

(١) كن قويًّا بالإيمان: منهج إسلامي في بناء الشخصية القوية ـ محمد إبراهيم مبروك ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ ـ ص٢٦١، ٢٦٢.

جذور عقائدية، وكلما كانت قادرة على التواصل مع العالم المحيط تواصلًا إيجابيًّا، كانت أكثر تأثيرًا في الفرد والجماعة على السواء.

❑ الخلاصة

إن آفاق بناء مجتمع عربي إسلامي مقاوم يتطلب ما يلي:

١- زيادة الارتباط باللّه والثقة به وزيادة جرعة الإيمان في كل تكوينات المجتمع، وهذا دور وسائل الإعلام ومراكز الوعظ والمساجد والهيئات التعليمية والمؤسسات الاجتماعية والثقافية... إلخ.

٢- دعم الأسرة بوصفها مكونا اجتماعيا قويا ولبنة أولى في بناء المجتمع المقاوم، تلك الأسرة المتراحمة المتماسكة المتكافلة التي تتمثل فيها كل مقومات المجتمع المقاوم.

٣- التحصين بالقيم الإيمانية والوازع الأخلاقي في مواجهة صور التحلل المنشورة في الفضائيات وشبكة المعلومات الدولية (internet) وتقديم البدائل في كل هذه الوسائل.

٤- تنمية الاقتصاد الوطني والعربي والإسلامي وتكامله وبناؤه على أساس الاعتماد على الذات، وعلى الموارد المحلية والوطنية والعربية والإسلامية، كداعم أساسي لكل أشكال المقاومة.

٥- تطوير البحث العلمي في كل الاتجاهات بهدف تقليل الفجوة التقنية بيننا وبين الأمم المتقدمة.

٦- إشراك الجماهير في اتخاذ القرار وفي انتخاب من يمثلهم، ومحاسبتهم وعزلهم عند الضرورة، كقوة أساسية لبناء مجتمع يقاوم الظلم والفساد والمحسوبية والعدوان بكل أشكاله.

٧- استمرار تربية النشء والأطفال والرجال والنساء على حب اللّه ورسوله ﷺ والجنة والاستشهاد، لأن الأمة التي تترك الجهاد يُسلط عليها الذل والاستعباد.

الفصل الثاني

الديمقراطية والإسلام يجتمعان(*)

أتابع منذ فترة ليست بالقصيرة كتابات الأستاذ/صلاح عيسى وأحمل له مع غيري كثيرين كل احترام وتقدير، برغم أن الأرضية الفكرية التي يقف عليها الأستاذ/ صلاح عيسى غير الأرضية الفكرية التي يقف عليها كاتب هذه السطور. ولقد سعدت وشرفت بدفاعه القوي والصادق عن حقنا في إنشاء «حزب الوسط» الذي تعرض لمقاومة أطراف كثيرة سماها الأستاذ/ صلاح الجبهة المضحكة، وهو موقف متسق مع تاريخ وممارسات الأستاذ/ صلاح في قضية الدفاع عن الآخرين وحقوقهم في مواقف متكررة وكثيرة، وهذا ما ضاعف احترام الرأي العام لشخص الأستاذ/ صلاح عيسى. كما تضايقت للمعركة التي دارت حول الرواية[1] الأخيرة التي أعادت لنا حالة الاستقطاب غير الصحي بين قطاعات المثقفين والمفكرين والسياسيين حول قضية الحرية والثوابت. ولقد كنت وما زلت ضد الطريقة التي تم بها معالجة الموقف من الرواية منذ البداية مع تأكيد موقفنا الذي هو موقف يكاد يكون موقف الكل من حرية التعبير التي يجب ألا تتعارض مع قيم الأمة وثوابتها مع اختلافات بسيطة حول التفاصيل مثل: كيف يكون ذلك؟ ومن له حق التحديد ؟... إلخ. المهم أن هذه المعركة البائسة كان من نتائجها أن أثرت في مواقف كثيرة جعلت أطراف الصراع حولها أو قل جزءًا مهما منها خرج عن الموضوعية، وبدأت حالة التحامل والتجريح تطغى على الإنصاف والاعتدال. ولعل أستاذنا / صلاح عيسى يسمح لي بقول إن تعليقه على حواره مع الأستاذ / منتصر الزيات في قناة أوربت ـ الذي لم

(*) نشر هذا المقال في جريدة «القاهرة» بتاريخ ٢٠٠٠/٦/٢١م .

(١) رواية « وليمة لأعشاب البحر » .

أشاهده ولكني قرأت ما كتبه الأستاذ / صلاح في العدد الأخير من «القاهرة» - خير شاهد على ذلك، فأنا أعلم أن الأستاذ / صلاح يعلم أن التيار الإسلامي يشمل فصائل عدة لرؤى مختلفة ومواقف متباينة كثيرة، ومنها الموقف من الديمقراطية، وبالتالي أيًّا كان موقف الأستاذ/ منتصر الزيات فهو ليس كل التيار الإسلامي بكل فصائله، فكون الأستاذ صلاح يجمع الكل ويؤكد في مواضع مختلفة على ذلك فهو بالتأكيد أحد الآثار السلبية للمعركة الأخيرة.

ولذلك أجدني مضطرًّا لتأكيد ما هو معروف للأستاذ / صلاح ولقطاع محترم من المثقفين والرأي العام من أن هناك مجموعات إسلامية، بل وعددًا كبيرًا غير منظم من الإسلاميين لهم رأي آخر غير الذي انتقده الأستاذ/صلاح، وهم يرون أن الديمقراطية بأساليبها (بوصفها وسيلة لإدارة النظم والتداول والتعددية والحرية السياسية وحرية التعبير وحرية الفن والإبداع) في إطار قيم هذه الأمة ودينها لا تتعارض مع الإسلام بل هي ضرورية لخدمة الإسلام في هذا العصر.

وهم كذلك يرون أن الدولة التي يريدونها هي دولة مدنية يحكمها مدنيون ومتخصصون (سواء في السياسة أو في المهن) لا تختلف كثيرًا عن الدولة الإسلامية المعاصرة من حيث الشكل، لكن لعلها تختلف في التطبيق الحقيقي لقيم العدل والمساواة والحرية والعدالة الاجتماعية واحترام حقوق الإنسان والتعاون مع الغير والتكافل والتراحم... إلخ.

ولعلك يا أستاذ/ صلاح حينما تصف كل التيار الإسلامي بأنه قام بعمل دؤوب شاركت فيه كل فصائله - المعتدلة والمتطرفة - الإرهابية وغير الإرهابية... لخدمة هدف واحد هو تشويه كل مصطلحات الفكر الديمقراطي، وكل تعريفات لها تشيع التيقن بأن الديمقراطية كفر وإلحاد وزندقة، لعلك قد تجاوزت الحقيقة والإنصاف على غير ما نعرف عنك فلو قلت إن قلة منه تفعل ذلك تكون قد أنصفت ولم تتجاوز الحقيقة، لكن أن تجعل الكل هكذا فكما قلت أنا أرجعه للآثار السلبية للمعركة الأخيرة.

أما تعبير العلمانية، فهو في الحقيقة تعبير سيئ السمعة فعلًا كما قال من حضر

ندوة «دار الهلال» والذي أصبح كما قلت وزيرًا حاليًا. والتعبير فضلًا عن كونه سيئ السمعة في بلادنا هو تعبير ملتبس له تعريفات عديدة يصعب على المتخصصين فضلًا عن غيرهم أن يعرفوا ما المقصود في كل مقام بهذا التعبير، فإن كنت تقصد دولة يحكمها مدنيون وليس فقهاء فالتعبير أدق. ثم لماذا كل منا يريد أن يفرض تعبيرا أو وصفا على الأمة؟ نحن نحتاج أولًا إلى الحرية والديمقراطية الحقيقية والتداول والتعددية، وعندها نحتاج إلى برلمان حقيقي وهيئة تأسيسية حقيقية تعمل على إعادة صياغة الدستور أو تعديله وتعرضه على الأمة للاستفتاء عليه، وهذه الهيئة مخولة بالانتخاب الحر المباشر في هذه الصياغة. وجهد كل فريق من أبناء هذا الوطن يتمثل في أن يقنع الناخب أو الرأي العام بمشروعه وبرؤاه وأفكاره وصياغاته عبر جدل حر يتاح للجميع بعرض أفكارهم ومناقشة الآخرين.

ولعل أدل شيء على ما ذكرت ما استشهدت أنت به من حوار الشيخ / يوسف القرضاوي مع د. العظم وقد شاهدت هذا الحوار تلفزيونيًا.

الأمر الأخير أنني اعتقدت أن المشكلة الحقيقية هي هل نحن محتاجون لنقل التجربة الأوروبية بما فيها من خير وشر لبلادنا حتى نتقدم كما تقدموا أم لا ؟! وبالتالي هل سيكون الصراع الوطني المصري العربي الإسلامي والمشروع الغربي الأوربي الأمريكي كما هو؟ وهل يمكن أن يكون لدينا مشروعنا الخاص بثقافتنا وهويتنا وحضارتنا مع الاستفادة بما لدى الغير من خبرة وتجربة وحضارة؟

والإجابة في رأيي لم لا؟ والرسول ﷺ يقول: «الحكمة ضالة المؤمن إن وجدها فهو أحق الناس بها».

وبالتأكيد لديهم حكمة وتجارب إيجابية يجب الاستفادة منها ولكن من خلال مشروعنا الحضاري والثقافي والفكري المستلهم من دين هذه الأمة وحضارتها وتراثها ومكوناتها جميعًا.

* * *

الفصل الثالث

الإسلاميون و الديمقراطية[1]

اختلف الناس في أماكن كثيرة من العالم في تعريفهم وتعاملهم مع الديمقراطية منذ بدء الحديث عنها وتطبيق نماذجها في أماكن مختلفة من العالم.

ولأن في منطقتنا العربية والإسلامية دار حوار خاص حولها هو ما يهمنا نحن في المقام الأول: هل الديمقراطية أيديولوجية تقترب من الدين، أم آلية حضارية تعلمها الإنسان وطورها وأصبحت في شكلها الحالي وبخاصة في المجتمعات الغربية الحديثة؟!

أعتقد أن الإجابة عن السؤال السابق مدخل مهم لتحديد مواقف المجتمعات والرؤى الفكرية العربية والإسلامية، لأن من عرفها على أنها أيديولوجية فكرية وضعها في مقام قريب من الدين فصارت لديه كفرًا وهرطقة وبالتالي كان الرفض مدويًا وعنيفًا.

ومن تعامل معها وفق نتاج التطور البشري الإنساني وآلية من آليات تنظيم شئون الناس في الحكم واتخاذ القرار، قبلها في إطار الإسلام بوصفه دينا ومرجعية أعلى، بل وجدها أمرًا مهما ومطلوبًا في هذا العصر، لخدمة الإسلام وحضارته ومشروعه.

ولأن الديمقراطية ليست دينًا سماويًا ولا وضعيًا، فهي اجتهاد بشري مر بمراحل تطور في التاريخ الإنساني تغيرت فيها ملامحها وأشكالها حتى صارت إلى ما صارت إليه، فحينما نتعامل معها نحن المسلمين سوف ندخلها في إطارنا وبيئتنا وثقافتنا، بالشكل الذي نراه مناسبًا بما يتوافق تمامًا مع مبادئ ديننا الحنيف ومرجعيته الأساسية

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « المحايد » السعودية بتاريخ ٢٠٠١/١٠/١٢ م.

والحاكمة. ولم لا ونحن المنتمون لـ «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها»؟

ولذلك كانت مواقف الإسلاميين من الديمقراطية أشبه بلوحة پانورامية اتسعت باتساع المسافة من إندونيسيا شرقًا حتى المغرب غربًا ومن تركيا شمالًا حتى وسط وغربي إفريقيا جنوبًا.

وهناك مجموعات إسلامية حركية، وأخرى غير حركية، وبالتالي كلامنا سيكون عن المجموعات الإسلامية الحركية التي لها تجمع منظم ومشروع سياسي معبر عنها، ففي هذه المجموعات والجماعات والأحزاب مجموعات جهادية وتكفيرية بألوانها المختلفة التكفير (جماعة المسلمين) والتوقف والتبين والناجون من النار وجماعات الدعوة والقتال... إلخ، أخذت الموقف الرافض بشدة لكل أشكال الديمقراطية والعمل الحزبي وعمليات الانتخابات البرلمانية.

هناك مجموعات إسلامية أخرى تعاملت معها بالمنطق الذي أسموه في الغرب بديمقراطية المرة الواحدة، أي أن المشاركة لأول مرة للوصول للسلطة ثم تغيير هذا النظام بعد النجاح. وهذا النموذج كان يعبر عنه بعض قادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر والجبهة القومية الإسلامية في السودان (برغم أنها وصلت للسلطة عن طريق الانقلاب إلا أنها مارست هذا السلوك عمليًا).

المجموعات الثالثة في هذا الشأن هي جماعات وأحزاب إسلامية قبلت الديمقراطية بشكل نظري بوصفها وسيلة ثابتة ومستقرة، وإن كان بعضها ما زال لديه غموض في التعبير عن تفاصيل هذا القبول وشكله، وأحيانًا بعض قياداتها تعبر عن مفاهيم مضادة له وإن كانت إجمالًا تحسب من الناحية النظرية أنه تقبل بها مثل: جماعة الإخوان المسلمين في مصر والجماعات المتفرعة منها مثل جماعة الإخوان المسلمين في الأردن، وحزب جبهة العمل الإسلامي كواجهة للجماعة، الجماعة الإسلامية بلبنان والتجمع اليمني للإصلاح، وحزب حركة مجتمع السلم (حمس) في الجزائر والحركة الدستورية بالكويت وحزب النهضة بتونس، وإن كانت الأخيرة أي النهضة والحركة الدستورية أكثر التجارب نضجًا من الناحية السياسية، كذلك حزب باس بماليزيا.

كما أن هناك أحزابا إسلامية قبلت نظريًا بشكل أكثر وضوحًا النموذج الديمقراطي بل ومارسته، وفي هذا الإطار فإن حزب الرفاه التركي وما تلاه من تشكيلات مثل الفضيلة والعدالة والتنمية... إلخ يُعَدّ أكثر هذه النماذج تعبيرًا عن هذا الخط.

كما أنه أحيانًا هناك جماعات إسلامية تقف في مسافة مرتبكة في علاقتها بالديمقراطية، لا هي قبلتها ولا هي رفضتها، مثل الجماعة الإسلامية بباكستان.

بل لاح في الأفق في الفترات الأخيرة مشروعات سياسية جديدة كأحزاب إسلامية مدنية تؤطر علاقتها بالعمل السياسي بشكل أوضح وبالديمقراطية كأسلوب، منها من حاول تأسيس حزب مثل مشروع **(حزب الوسط المصري)** ومشروع سياسي آخر بالبحرين وحزب الوسط الإسلامي بالأردن، أو مجموعات انضمت لأحزاب مثل تجارب الحركة الإسلامية بالمغرب التي انضمت لأحزاب وطورت منها وأصبح اسم الحزب العدالة والتنمية، كذلك كنموذج حزب العمل بمصر وتجربته في الفترة الماضية قبل تجميده أخيرًا.

لهذا كما ذكرت تتعدد المواقف وتتباين من هذه المجموعات. وأحب هنا أن أشرح موقفنا نحن حزب الوسط المصري ورؤيتنا الشخصية للديمقراطية.

فنحن نرى أن الديمقراطية نتاج تجارب إنسانية متطورة، والتجارب الإنسانية هي تراث إنساني ملك لكل البشر لأنها من نتاج كل البشر ومحصلة عدة حضارات ومكونات، ومن هذه المكونات المهمة الإسلام بوصفه دينا وحضارة وثقافة ساهم في الحضارة الإنسانية مساهمة كبيرة وفعالة، فليس كل ما جاء من الغرب إلى الشرق نتاج هذه المجتمعات ولكنه نتاج مركب دخل فيه التاريخ والجغرافيا والزمن، فنحن نرى أن الديمقراطية كآلية حضارية وليس كمفهوم أيديولوجي هي من إنتاج الحضارة الإنسانية، كما أن الشورى وهي أصل من أصول الإسلام بمثابة السياج العام أو الإطار العام كمبدإ ثابت. والديمقراطية هي الآلية المناسبة حتى الآن بوصفها وسيلة متغيرة لتطبيق هذا المبدإ. فالشورى حاكمة وثابتة والديمقراطية آلية متغيرة. والشورى أجمع العلماء والمجتهدون المعاصرون على أنها ملزمة وليست مُعْلِمَة ولكنهم لم يشرحوا

كيف تكون ملزمة: ما آليتها؟ ما اللوائح والنظم المطبقة لها؟ أو كيف يُختار أهل الشورى؟ ما شروطهم ؟ كل هذا يمكن التعبير عنه من خلال الآلية الديمقراطية، فهناك شروط تقبلها الأمة في الترشيح وكذلك في التصويت وعليه يمكن اختيار مجلس، أو مجلسين ليكمِّل أحدهما الآخر ويتوازنا في صياغة التشريعات وسن القوانين ومراقبة الحكومات ومحاسبتها. ولا يمكن أن يفهم البعض أن هذا المجلس أو ذاك هو تشريع من دون اللّه، فالمهمة التشريعية هنا هي عبارة عن صياغة قوانين مستمدة من مبادئ الشريعة أو غير متصادمة معها أو متعارضة وفق احتياجات الناس وخبرة البشر فيما يصلح أحوال الأمة، فهم يشرعون بمعنى الصياغة القانونية في مواد ونصوص، أساس المرجعية وأساس المشروعية هي الإسلام كدين وكتشريع عام ومبادئ يجتهد الناس في صياغتها بطريقة عصرية، وفي اختيار الأنسب والأيسر والأصلح للناس.

مع العلم بأن أغلب الرافضين للديمقراطية يرفضونها على أنها شيء أيديولوچي متعارض مع الدين ودائمًا ما يقولون إن مجلس العموم البريطاني أباح الشذوذ فهل هذه هي الديمقراطية التي يريدونها؟

وهو مثال خاطئ في المكان الخاطئ، فنحن نقول إن مجالسنا التشريعية أيا كان اسمها يُختار الناس لها وفق شروط أهمها العدالة والاستقامة، ثم إنها محكومة بأن الأساس الرئيسي هي الشريعة وأن أي نص يتعارض مع الشريعة باطل وأن هناك مجالس رقابة على هذا وأشكالها الحديثة هي المحاكم الدستورية العليا، التي تلغي أي تشريع يتعارض مع الدستور حيث نصت معظم دساتير الدول العربية والإسلامية على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد أو المصدر الرئيسي أو مصدر رئيسي للتشريع، وأن الإسلام هو دين الدولة، فأي قرار أو قانون يتعارض مع الإسلام أو الشريعة فهو باطل وملغي حتى لو كانت شبهة التعارض ضعيفة ما بالك بهذا المثال الصارخ المستفز.

كما أن تطور المجتمعات الإسلامية الحديثة جمعت في عضوية هذه المجتمعات ديانات أخرى غير الإسلام وهي في أغلب الأماكن المسيحية، وهؤلاء لم يعودوا أهل ذمة كما يحاول البعض أن يروج لهذا، ولكنهم مواطنون لهم حقوق المواطنة كافة في

إطار المشروع الحضاري الإسلامي الذي يجمع بين أبناء الحضارة الإسلامية مسلمين و«غير مسلمين»، وهذه قضية تجعل التعامل مع الديمقراطية وصياغتها بوصفها آلية أمرًا مهمًّا، لطمأنة الجميع ومشاركة الجميع ولتطبيق أحد أهم مبادئ الإسلام وهو العدل، لأن لنا جاليات إسلامية في معظم دول الغرب يعاملون نظريًّا على الأقل على أنهم مواطنون، فكيف يطالب بعضنا بحقوق إخواننا المسلمين في الغرب وهو عمليًّا يدعو إلى هضم حقوق غير المسلمين في بلاد المسلمين؟

البديل أن أغلب الرافضين للديمقراطية لم يقدموا شكلًا كاملًا من الناحية النظرية لما هو البديل وكأنهم يقولون «بنظرية المستبد العادل» تلك النظرية غير المقبولة شرعًا وعقلًا، فكل المستبدين في التاريخ كانوا ظالمين بدرجات متفاوتة من الظلم، فما بالنا إن كان لدينا نظام جربته البشرية فأبدعت وتقدمت وتطورت وحاسبت حكامها وعزلتهم إذا لم يلتزموا بإرادتها ولم يتجاوزوها، فلم نرفض أن نستفيد بهذه التجربة داخل محضننا نحن الإسلامي في إطار الإسلام كدين والشريعة كتقنين وكإطار وسياج حاكم ومنظم.

أما التخوف من وصول الدهماء وغير المؤهلين للمجالس التشريعية وسدة الحكم فهو تخوف مضحك، إذ يوحي بفشل دعاة المشروع الإسلامي في إقناع الناس باختيار ممثليهم، فإن حدث هذا لا قدر الله فالعيب في الداعين للمشروع الإسلامي. فكما قال المرحوم الشيخ الغزالي: «الإسلام قضية ناجحة يعرضها محام فاشل»، فنحن نحتاج إلى أن ننضج أفكارنا ومشروعنا الإسلام الوسطي المعتدل الذي يصلح الناس ويأخذ بأيديهم لما فيه خيرا الدنيا والآخرة على أساس العدل والمساواة والرحمة والتكافل والبر تأييدًا لقول الله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[1] فهذه منة الله على خير خلقه محمد ﷺ، فأي منتسب لهذا الدين ولهذا النبي الكريم يجب أن يكون حيث يحب الله أن يراه وعند هذا سيكون عند حسن ظن الناس به احترامًا لإرادتهم وامتثالًا لاختيارهم، والله من وراء القصد.

---

(١) آل عمران: ١٥٩.